الاجتماعى . ونهضتها الحديثة وسايرت النساء العربيات فى تكوين الأسر فى الأوساط المختلفة . حتى لقد أصبح كثير من خلفاء بنى أمية والجهرة الساحقة من خلفاء بنى العباس — من أولاد هؤلاء الجوارى — ولما راجت سوقهن وكثر إقبال الناس عليهن ، وكانت الحياة العربية حياة لغة وأدب وفكاهة وسمر ، عنى النخاسون وموالى الجوارى بإعدادهن لهذه الحياة على خير الوجوه وأكملها . فعلموهن الرواية والشعر والإجازة والمطارحة والغناء . وكلما نبغت الجارية فى هذه الضروب غالى صاحبها بها فى الثمن واشتط فى التقدير — وسار الأمر على نظام التدرج والارتقاء فى صدر الإسلام وعصر بنى أمية حتى أظل الناس عصر بنى العباس فطما السيل وعجت الحياة العربية بهن عجيجا . وإذا علمت أن السيدة زبيدة كان يُسمع لجواريها وهن يقرأن القرآن فى قصرها مثل دوىّ النحل ، وأن بعض خلفاء بنى العباس كان يحوى قصره بضعة آلاف من الجوارى — استطعت أن ترى من كثب كثرة هؤلاء الجوارى . هذا الى ما كان للسواد الأعظم من الأهلين من الجوارى . حتى لقد كان للجوارى النواهض منهن فى عصور الإسلام المختلفة جوار مملوكات يصرفهن فى خدمتهن ويساعدنهن فى الغناء .

ولا نريد فى كلمتنا الموجزة هذه أن نعرض للناحية اللاهية من حياة الجوارى فذلك ما لا يستسيغه القلم . ولا يرتاح اليه الخلق . ونأخذ فى بيان « أثرهن فى الغناء » .

تعتبر نشأة الغناء العربى حجازية لما امتاز الحجاز به فى القرن الأول من الرخاء واليسر والفراغ من مهام الخلافة التى ألقت زمامها الى بنى أمية ، فقادوها الى الشام ، واستقروا بها فى دمشق تفاديا للأخطار ، وتباعدا عن سماع زئير القروم العربية الذين يناهضونهم بطلب الخلافة — ولما جبل عليه أهل الحجاز بفطرتهم من الرقة والظرف — ولكثرة المال الذى كان يرسله بنو أمية لسادة الحجاز وأعيانه ، يبتغون به رضاهم ، وقعودهم عن الخلافة ، وشغلهم بزهرة الحياة الدنيا ولهوها — فلهذا كله أبلغ الأثر فى إقبال الناس على شراء الجوارى وعقد مجالس الغناء الذى نشأ بمكة والمدينة وليدا ، وشب على أيدى الجوارى ينشئنه ويحسن القيام

عليه ويغذينه بما يبتكرن من ألوان جديدة. وكان منهن فى الحجاز زعيمات رفعن لواء الفن فى صدر الاسلام وانفردن بالزعامة: كجميلة مولاة بنى سليم التى كان منزلها بالحجاز أكبر مباءة فنية تنتظم رواد الفن وأعلامه. ولبيان منزلتها الفنية نسوق اليك الحديث الآتى: وفد من مغنى مكة جماعة من زعماء مغنيها وهم ابن سريج والغريض وسعيد بن مسجح ومسلم بن محرز — فالتقوا بمعبد وابن عائشة من زعماء مغنى المدينة، فدار الحديث بينهم حول الغناء وما ألفوا فيه من الأصوات وفى آخر الأمر احتكم هذا الجمع الى جميلة فسمعت أصواتهم جميعا. وأنزلت كل واحد فى المنزلة اللائقة به — فلم يعارضها منهم أحد. ونزل هؤلاء الأعلام فى الفن على حكمها والرضا به — وفى هذا ما يقنعك بما كان لهذه الزعيمة من إجلال ورفعة فى نفوسهم — ومن شهيرات الجوارى المغنيات فى هذا العصر عزة الميلاء بالمدينة، وتعد من المجددات فى الغناء العربى، فقد تلقت ألوانا من الغناء الفارسى وألقت عليها ألحانا عربية عجيبة، فكانت أول من فتن أهل المدينة وحرض رجالهم ونساءهم عليه — وكانت خير من ورث غناء القيان القدامى أمثال سيرين وخولة والرباب وسلمى ورائقة. وكان منزلها منتدى عاما يحضره الناس كأنما على رءوسهم الطير — ونكتفى فى الدلالة على فضلها فى عالم الغناء بقول علم من أعلامه وهو ابن سريج فقد قال حين سئل من أحسن الناس غناء «مولاة الأنصار المفضلة على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء».

والذى نريد أن نقوله ان مثل هذا النبوغ لا يكون وليد مصادفة ولا أثر سذاجة. وإنما هو ثمرة تربية منظمة للفن فى الحجاز لوجود الوسائل الصالحة له. وإذا كان الفن يتطلب دائما نصيرا له يستظل بظله. ويأوى الى ركنه — فقد ظفر فى الحجاز فى صدر الاسلام بأنصار يعد خيرهم فضلا وأصدقهم اخلاصا له السيد الأمثل الظريف السخى الكريم عبد الله بن جعفر الذى سار كرمه مسار الغيث يتنظره الناس ليفرجوا كروبهم ويقضوا به لباناتهم. ولعلك تشعر بهزة إعجاب وارتياح إلى هذا الرجل حين تسمع قول التاريخ الخالد فيه:

عليه ويغذينه بما يبتكرن من ألوان جديدة. وكان منهن فى الحجاز زعيمات رفعن لواء الفن فى صدر الاسلام وانفردن بالزعامة: كجميلة مولاة بنى سليم التى كان منزلها بالحجاز أكبر مباءة فنية تنتظم رواد الفن وأعلامه. ولبيان منزلتها الفنية نسوق اليك الحديث الآتى: وفد من مغنى مكة جماعة من زعماء مغنيها وهم ابن سريج والغريض وسعيد بن مسجح ومسلم بن محرز — فالتقوا بمعبد وابن عائشة من زعماء مغنى المدينة، فدار الحديث بينهم حول الغناء وما ألفوا فيه من الأصوات وفى آخر الأمر احتكم هذا الجمع الى جميلة فسمعت أصواتهم جميعا. وأنزلت كل واحد فى المنزلة اللائقة به — فلم يعارضها منهم أحد. ونزل هؤلاء الأعلام فى الفن على حكمها والرضا به — وفى هذا ما يقنعك بما كان لهذه الزعيمة من إجلال ورفعة فى نفوسهم — ومن شهيرات الجوارى المغنيات فى هذا العصر عزة الميلاء بالمدينة، وتعد من المجددات فى الغناء العربى، فقد تلقت ألوانا من الغناء الفارسى وألقت عليها ألحانا عربية عجيبة، فكانت أول من فتن أهل المدينة وحرض رجالهم ونساءهم عليه — وكانت خير من ورث غناء القيان القدامى أمثال سيرين وخولة والرباب وسلمى ورائقة. وكان منزلها منتدى عاما يحضره الناس كأنما على رءوسهم الطير — ونكتفى فى الدلالة على فضلها فى عالم الغناء بقول علم من أعلامه وهو ابن سريج فقد قال حين سئل من أحسن الناس غناء «مولاة الأنصار المفضلة على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء».

والذى نريد أن نقوله ان مثل هذا النبوغ لا يكون وليد مصادفة ولا أثر سذاجة. وإنما هو ثمرة تربية منظمة للفن فى الحجاز لوجود الوسائل الصالحة له. وإذا كان الفن يتطلب دائما نصيرا له يستظل بظله. ويأوى الى ركنه — فقد ظفر فى الحجاز فى صدر الاسلام بأنصار يعد خيرهم فضلا وأصدقهم اخلاصا له السيد الأمثل الظريف السخى الكريم عبد الله بن جعفر الذى سار كرمه مسار الغيث يتنظره الناس ليفرجوا كروبهم ويقضوا به لباناتهم. ولعلك تشعر بهزة إعجاب وارتياح إلى هذا الرجل حين تسمع قول التاريخ الخالد فيه:

« كان أهل المدينة يَدَّانُونَ إلى أن يأتى عطاء عبد الله بن جعفر » ولقد كان يحسن الاستماع ويرغب فيه ويزور زعيماته تشجيعا لهن ونصور لك صورة من زياراته: دخل يوماً على جميلة المغنية فى بيتها ورجال الأدب والفن فى حضرتها يستمعون اليها و إلى جواريها فأجلسته فى صدر المجلس وجلس حوله أصحابه ؛ ثم أشارت إلى من حولها من عامة الناس فتفرقوا ؛ ثم أقبلت عليه وقالت : « ياسيدى وسيد آبائى ومواليَّ كيف نشطت إلى أن تنقل قدمك إلى أمتك ! قال ياجميلة قد علمت ما آليت على نفسك ألا تغنى أحدا إلا فى منزلك وأحببت الاستماع ؛ قالت : جعلت فداك فأنا أصير اليك وأكفر ؛ قال لاأكلفك ذلك » ثم انظر إلى تعففه فى السماع ونبوه عن لغو القول ، وهو فى أصحابه القدوة الحسنة ، والمثل الصالح فى الخلق والأدب كيف يطلب اليها فى رفق وهوادة ولباقة وكياسة أن تغنى شعرا عفيفا فيقول : « وبلغنى أنك تغنين بيتين لامرئ القيس تجيدين الغناء فيهما ، وكان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت ، فغنت بهما وهما :

ولما رأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دامى

تيممت العين التى عند ضارج يفىء عليها الظل عرمضها طامى

فقال له بعض الحاضرين : كيف أنقذ الله بهما جماعة من المسلمين ؟ قال : أقبل قوم من اليمن يريدون النبى صلى الله عليه وسلم فضلوا الطريق ومكثوا ثلاثا لايقدرون على الماء حتى أشرفوا على الهلاك . فأقبل راكب على بعير له وأنشد بعضُ القوم البيتين فقال الراكب من يقول هذين البيتين ؟ قال امرؤ القيس ؛ قال والله ما كذب ، هذا ضارج عندكم . فحبوا على الركب فاذا ماء عذب عليه العرمض والظل يفىء عليه فشربوا منه ؛ فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه ؛ فقال : ذلك رجل مذكور فى الدنيا منسى فى الآخرة خامل فيها ، يجىء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار .

ولقد كتبت جميلة فى موقف آخر إلى السيد الجليل عبد الله بن جعفر كتابا تستزيره فيه ، وأعدت له حفلة غناء بهيجة جمعت أسباب البهجة والكمال ليشرف

لفن به وينمو فى كنفه . فكان هـذا الكتاب درة ثمينه فى عالم الأدب ، ولولا خوف الاطالة لسقنا هذا الكتاب مسرة للقارئين .

ومن الغريب أن يكون الحجاز فى صدر الاسلام وعصر بنى أمية مباءة الغناء العربى وحصنه — وأن دمشق حاضرة الخلافة لا تظفر بمثل هـذا النبوغ ولا بمثل هذه الكثرة من المغنين المجيدين ، على ما فيها من أسباب القوة والعظمة ودواعى السرور والمتعة فى قصور خلفاء بنى أمية . ولهـذا كانوا يستقدمون الكثير من مغنى الحجاز ويشترون النابهات من جواريه المغنيات ليتصلوا بالفن الحجازى الرقيق الملائم لفطرتهم العربية الخالصة وليمزجوا أصوله بأصول الغناء الدمشقى على بعد ما بين الغنائين من فروق فى الذوق والأصول .

وجاء العصر العباسى فكان حادثا خطيرا أصاب فن الغناء فى الحجاز فى الصميم فذوى عوده ، وفتر صادحه ، وانتقلت نهضة الفن إلى العراق حيث بغداد عروس الدنيا ومطلع اليمن وملتقى الآمال ومنبع الثراء — ولأن العباسيين كانوا قد لبوا داعى الغضب والنقمة على العرب فولوا وجوههم شطر الفرس وقبضوا أكف العطاء عن الحجاز وأهله لميله إلى العلويين — وداخل الفرس العرب مداخلة عظيمة وامتزجوا بهم امتزاجا عظيما كان له كبير الأثر فى العلم والفن . فنهض الغناء نهضة عظيمة ونهضت أصوله وظهر فيه أعلام من بيت الخلافة العباسيه ونبغاء من الفرس . ومجددون أنكروا على القدامى مذاهبهم فى الفن ، كما أنكر الشعراء المجددون على القدماء مذاهبهم فى الشعر القديم فى عالم الأدب .

ونبغت الجوارى فى العصر العباسى فى الغناء نبوغا عظيما وابتدعن فيه وألفن كبذل التى كانت تغنى ثلاثين ألف صوت ، ولها كتاب فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت وعريب التى تعد من أقدر المغنيات فى هـذا العصر على الغناء ولها فيه تأليف - ومن الحق الذى لامراء فيه أن نقول إن الغناء فى هذا العصر قد وصل على أيدى الجوارى إلى أبعد غاية من التقدم والرقى ترجى له . ومجالس الغناء فى عصر الرشيد والواثق وأمثالهما من خلفاء بنى العباس تعد من مفاخر

الدنيا وعجائب الفن التى لم تظفر بمثلها مدنية من المدنيات التى سايرت عصور العرب . والمطلع على وصف مجالس الغناء فى عصر كعصر الرشيد يدهش لتلك المقدرة الإنسانية الفائقة فى الفن ويخيل اليه أنه فى عالم ملىء بالأحلام التى تملأ النفس غبطة وانشراحا لاحد لهما .

رحمة الله على تلك العصور وما حوت من نبل وعظمة ومجد وعلم وفن — ووداعا لتلك الشخصيات العظيمة التى زهت بها الأيام وأضاءت بها الليالى وحسنت بها الدنيا . وإنا لنطوى آسفين هذا الحديث وسنطلع على القراء فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى من هذا المطلع بحديث غيره فى الأدب وما للجوارى فيه من جولات وثمار ؟

عبد اللطيف المغربى